أدب الطفل .. الأفكار والمفاهيم، وتشكيل الوعي في ظل الجمهورية الجديدة

أ. فاطمة فؤاد أحمد

كاتبة أطفال

مقدمة

إن التطلع لأدب يتوافق مع الآمال التي حققتها الجمهورية الجديدة بحاجة منا إلى المزيد من التأني فيما يقدم للأجيال القادمة؛ لكي تتوافر لديهم مبادئ ومفاهيم وسلوكيات وتشكيل الوعي للحفاظ على ما حققته لهم الإنجازات المتوالية، فالدور الذي يقوم به أدب الطفل يسهم بنسبة كبيرة في ترسيخ القيم التي تتبنى المستقبل، وتتواكب مع طفل اليوم والغد والمستقبل أيضًا.

إن الجهود والمساعي التي تقوم بها الدولة نحو التطوير والتنمية والمبادرات المستمرة لدعم كل فئات المجتمع، تجعل الأجيال القادمة تطمئن على المستقبل القريب، وتضمن لذلك الأدب النهوض في ظل مستجدات عصر المعلومات مواكبة للعالم من حولنا.

إن دائرة العلم والتعلم ستظل تضرب بجذورها في أدب الطفل، وكذلك في الفرق بينهما، فهما اللذان يمهدان معًا لتشكيل الوعي بمفاهيم القيم الصحيحة، ويسهمان أيضًا في تأصيل مبادئ وسلوكيات تتبنى الأفكار الإبداعية الخلاقة وتربية الروح والوجدان؛ لتتحول الصورة إلى شكل ومضمون يعبر عن الأدب الموجه للصغار في سياق الوعي والتنمية الحقيقية، ويجعل من أدب الطفل انعكاسًا لواقع الجمهورية الجديدة التي تضيف إليه إضافات جديدة في ظل مستجدات عصرية واقعية ملموسة تجعله أكثر تألقًا، وأكثر واقعية، وأكثر انسيابية، بل أكثر فكرًا ووعيًا، فتتحقق فيه مفاهيم تلقى طريقها باتجاه التطوير الجديد نحو البناء، ليس فقط بناءً مجتمعيًا، بل بناء الفرد بناءً واعيًا يدرك فيه مستجدات كل شيء من حوله بدءًا من الأصالة والعراقة والتاريخ، إضافة الى الوعي والفكر والدلالات والمفاهيم الحقيقية، في ظل الجمهورية الجديدة، وما حققته من إنجازات كان لها الأثر على المجتمع بأكمله.

وفيما يلي نرصد عدة نقاط للبحث:

١. أدب الطفل: النشأة والتطور

كتَّاب القصة ورواتها رسل لا تستغني عنهم الحضارة الإنسانية، فهم يصورون العالم ويخططون حدوده وأشكاله في ذهن أطفال اليوم ورجال المستقبل، وأدب الأطفال قديم قدم قدرة الانسان على التعبير، وحديث حداثة القصة التي يرويها المدرسون في فصول الدراسة اليوم أو يذيعها المذيعون في ركن الأطفال بالإذاعة والتلفزيون هذا الصباح، أو يقصها الآباء والأمهات والمربيات بجوار أسّرة الأطفال عند النوم، أو يرويها الرواة في مجتمعات الأطفال في كل مكان، ينسجون أدبًا يستمتع به الأطفال، فيطلق العنان لخيالاتهم وطاقتهم الإبداعية، ويطور وعيهم وطريقة فهمهم للحياة، وينمي إدراكهم الروحي ومحبتهم للجمال ولروح المعرفة، ويبني فيهم الإنسان ويصنعه.

وعبر المسيرة الطويلة من عمر الزمن يسهم أدب الأطفال بنصيب كبير في صنع البشرية حين ينقل تراثها وخبراتها من جيل إلى جيل، والطفل العربي بعامة ظل محرومًا من الأدب الرفيع المؤلف له خاصة قرونًا طويلة، ولم يدخل أطفالنا عالم الأدب المكتوب إلا في العشرينيات من هذا القرن، ولأن أدب الأطفال ليس منفصلًا عن الحياة، ولأنه يستمد مادته من خلال الكبار وعواطفهم فقد خرج صدى للحياة، ونما في نفوس الكبار وقلوبهم، وشبت أجيال وأجيال من الأطفال العرب الذين عاشوا في عهود الاضمحلال يعانون من فقر التجربة وجدب العاطفة وتشويه الخيال، ثم بدأت قطرات من الندى في أواخر العشرينيات تبلل هذا الجدب وتخفف من وطأة القحط في حياة الأطفال في مصر، حين كتب الرواد الأول القصص العربية الأولى للأطفال.

وفي الخمسينيات من هذا القرن أخذ وجه من الصورة يتغير تغيرًا ملموسًا، فقد خرج للأطفال العرب فيض من الأدب المكتوب لم يتاح مثله للأجيال السابقة في التاريخ العربي الطويل، واعترفت الهيئات العلمية والأدبية في مصر بنتاج أدب الأطفال فنًا من فنون الأدب الجادة والهادفة وقدرته قدره، فرصدت له جوائز الدولة مساواة بالفنون الأدبية للكبار، حيث يذكر الحديدي في كتابه في أدب الأطفال: "والتفكير في هذا الكتاب يعود إلى سنوات مضت، ولكن خطوات التنفيذ أخذت طريقها إلى الوجود حين بدأت في تدريس أدب الأطفال مادة علمية لقسم دراسات الطفولة بكلية البنات جامعة عين شمس عام (١٩٦٢)، وكانت كلية البنات بذلك أول معهد جامعي في بلادنا العربية يبدأ الدراسة العلمية لهذا اللون من الأدب"[(١)].

وسلك التراث القصصي في هجرته وانتقاله من شعب إلى شعوب أخرى طرقًا متعددة، فقد خرجت القصص المصرية مع الجنود والحاكمين إلى الشعوب المجاورة أيام الإمبراطورية المصرية، ومع الملاحين والتجار[(٢)] المصريين الذين جابوا البحار وزاروا البلاد على شاطئ البحرين: الأحمر، والأبيض المتوسط، وخرجت مع قوم موسى من وادي النيل ينشرونها في متاهتهم في أسيا الصغرى، وأثّر التراث القصصي المصري في أدب الشعوب المجاورة، حتى أصبح من الحقائق الثابتة أن الحكمة المصرية موجودة في أمثال

سليمان الحكيم ومزامير داوود، وقد عثر المنقبون عن آثار مصر القديمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على أول تسجيل في تاريخ البشرية لأدب الأطفال ولحياة الطفولة ومراحل نموها، ويرجع تاريخه إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد مكتوبًا على أوراق البردي ومصورًا على جدران المعابد والقصور والقبور، ومن هذه الكتابات والنقوش والصور أمكن للإنسان المعاصر أن يعرف ما كان يغرم به الأطفال في العصور القديمة من أنواع اللهو والتسلية واللعب(٣).

وإذا تأملنا فيما وصل إلينا من الحكايات المصرية القديمة للأطفال نجدها قد دونت في أسمى أسلوب فني؛ مما يدل على أنها مرت بمراحل التطور حتى وصلت إلى النضج الفني من الحديث والحكاية، ففيها أسلوب التكرار، وحسن الانتقال بين الأحداث، واستخدام ذلك كله استخدامًا مؤثرًا في الأطفال، والذي يؤكد أن هؤلاء الأطفال قد استمتعوا برصيد ضخم من الأدب القصصي ذلك التطور والانتقال إلى المرحلة التالية للأدب المكتوب، وهي مرحلة الأدب المصور، فقد وجد على جدران المقابر والمعابد والقصور قصص مصورة للأطفال، وقد استلهم (والت ديزني) السينمائي المشهور فكرته عن الكرتون وشخصيته من زيارة قام بها لمقابر المصريين القدماء، ورأى فيها قصص الأطفال المصورة، فكانت الوحي والإلهام.

وقد أظهرت الدراسات التي قام بها الباحثون في أدب الأطفال أن أول ما كتب من أدب خاص بالأطفال في العصر الحديث ظهر بفرنسا في أواخر القرن السابع عشر، فكانت بذلك أسبق الأمم الحديثة إلى كتابة هذا اللون من الأدب، وكانت هذه الفترة هي فترة استلهام أوروبا للعلوم العربية والشرقية وفنونها، وقد ظهر أثر الشرق العربي في الأدب الفرنسي خاصة، وكتب في هذا التأثير كثير من الباحثين، وكان ممن ألف في أثر الشرق في أدب فرنسا في القرنين: السابع عشر، والثامن عشر المستشرق (مارتينو)، وكان القصص الشرقي بعامة والعربي بخاصة من أهم ما استلهمته أوربا في هذه الفترة لتستمتع به، وتنسج على منواله(٤).

٢.منظومة التربية والابتكار والتعلم

يمر الفرد بتدريب شاق على فن الشعر، ويبدأ عددًا كبيرًا من الأبيات حتى رواية الشعر، ثم تأليفه كآخر المحطات، ويطلعنا التراث العربي على نماذج من هذه العملية المتدرجة عبر نموذجين: أولهما حالة (كعب بن زهير)، والثانية حالة (أبي نواس)، فالأول: يمنعه والده عن الإنشاد خوفًا على مجد القبيلة أن يزول، ويأتي بشعر على غير المتوقع لدى جموع المتلقين؛ مما يصيب القبيلة بالعار، لكن التراث لا يغفل الإشارة إلى عملية التدريب التي كان يقوم بها لولده، وهي ذات العملية التي يقوم بها بعض المهتمين المعاصرين بتدريس الأدب، إذ كان يدرب ولده عبر طريقة التعلم بالممارسة. حيث كان ينشد بيتًا، ويرد ولده ببيت، وهكذا معًا ينشآن نصًّا مشتركًا، نصًا جماعيًا، وهو عين ما قام به (تولستوي) حين

أراد أن يعلم تدريس الأدب الروسي، بأن يدرس لطلابه فن القص. كان (تولستوي) وقتها قد كف عن الكتابة كلية، ولكنه عبر التفاعل مع هؤلاء الصغار استطاع أن يجدد من ملكته الإبداعية، وأن يقدم فيما بعد روايته (الحرب والسلام).

وثانيهما: لما أراد (أبو نواس) أن يكون شاعرًا ذهب إلى الراوية (خلف الأحمر) وعرض عليه الأمر، فما كان من الأخير إلا أن طلب منه حفظ ألف بيت من الشعر، وأن يأتيه بعدها، فلما جاءه في حينه أبى إلا أن ينساها، فلمّا فعل، قال له: الآن يمكنك أن تنشد الشعر. المثال الثاني يقدم لنا جانبًا من آليات التعلم القائم على اكتساب بنية الكتابة عبر الحفظ، وذلك يقترب من مفهوم (جان بياجيه) عن (غير الوعي)، وهو ما يعنيه (ابن خلدون) حين تحدث عن صنعة الحائك في صنعته، فهو يحيك الثوب، ويقوم بعمل آخر، دون أن يلتفت لما يقوم به. الجسد قد حفظ عملية الحياكة، ومن ثم يمكنه أن يقوم بعمل آخر لا يعوق صنعته[٥].

يعتبر علماء النفس والتربية القصة أكثر الطرق التعليمية ملاءمةً، وأدقها انسجامًا، وأبعدها أثرًا في نفسية الطفل وقدرته الإدراكية لتغذيته بالثقافة والعلوم، تبدأ كعنصر تعليمي مهم عند بزوغ اللغة لدى الطفل، يميل إلى سماعها بمجرد ما يفهم لغة من يتصل به، ولمّا كانت القصة بخصائصها التربوية هذه وجب أن تكون غالبية كتب الأطفال قصصًا[٦] أو تتخذ القصة أسلوبًا لها، يذكر (سايرز) أن (٦٠%) على الأقل من كتب الأطفال يجب أن تكون قصصًا من نوع أو آخر؛ لأنها الطريق الجيد لتقديم الحقائق لعقول الناشئة، ثم إنها تقدم مواد علمية متفرقة للذين يعوزهم التركيز أو الذين ليس لديهم رغبة في إطالة البقاء تحت تأثير الكتب؛ مما تجعلهم يرتادون المكتبة بانتظام، ثم إن القصة المسموعة تعوّد الطفل حسن الاستماع وآدابه، وتنمي ما تهدف إليه القصص الصالحة من عناصر الآداب والسلوك الصالح في الطفل؛ فتؤثر فيه تأثيرًا يمتد مدى الحياة.[٦]

٣.أدب الطفل والأدب التفاعلي، والتحول الرقمي وعصر الجمهورية الجديدة

إن تكنولوجيا المعلومات تختلف اختلافًا جوهريًا عن سوابقها، وأنها قد أصبحت بالفعل عاملًا حاسمًا في تحديد مصير عالمنا: دولًا وأفرادًا، إن مجتمع المعلومات يطرح قيمًا ومفاهيم وأساليب جديدة، ويفرض على أفراده تحديات قاسية، ويعيد النظر في المسلمات المستقلة، وينذر بصراعات جديدة، ويثير قضايا فلسفية تتعلق بالإنسان في مواجهة الآلية، ويُبرِز أهمية المعرفة والثقافة واللغة، وعصر المعلومات هو عصر العلم المؤسسي الضخم، والنجاح فيه رهن بحسن استغلالنا للموارد خاصة الموارد البشرية[٧].

فالأدب الرقمي هو ذلك الأدب الذي يستفيد من الإمكانيات التقنية التي تتيحها برامج الكمبيوتر وشبكة الإنترنت. بكلمات أخرى، فالأدب الرقمي هو ذلك الأدب الذي يعتمد على خصائص وتقنيات تكنولوجية في إنتاجه، وتلقيه بحيث لا يمكن طباعته على الورق دون أن

يفقد من خصائصه، ومن هذه التقنيات: استخدام الرسومات والصور الفوتوغرافية، ولقطات الفيديو، وتوظيف الحركة والصوت، وإدراج الروابط، وغير ذلك[٨].

يتسم العصر الرقمي بالانفجار المعرفي والتكنولوجي، وانتشار نظم المعلومات والاتصالات، والاستعمال المتزايد للحاسوب، والتوسع في استخدام شبكة الإنترنت، الأمر الذي جعل العالم قرية كونية إلكترونية، وقد بدأت الدول تشعر بالأهمية المتزايدة للتربية المعلوماتية، ولمحو أمية الحاسوب من خلال توفير بيئة تعليمية وتدريبية[٩] فاعلية تجذب اهتمام الأفراد بعصر يتسم بالتطور المتسارع والتغيير المستمر، ويعتبر توظيف تقنية المعلومات والإنترنت في التدريب والتعليم من أهم مؤشرات التحول إلى العصر الرقمي[١٠].

تكمن شعرية الصورة الرقمية في أنها تشرك الطفل المتلقي في معايشة الأحداث المتلاحقة، ومن ثم بناء تصور استباقي استشرافي لما ستؤول إليه الأحداث، ولمّا كان شريط الصور يشبه المشهد المسرحي، وكان جهاز الحاسوب أو التلفاز يشبه خشبة المسرح، كان الطفل من ثَم شبيهًا في وضع تقليب المشهد المتفرج في قاعة العرض، والذي يعد جزءًا أساسيًا من العمل المسرحي، فالحركة التي تصاحب الصورة الرقمية تجعل الطفل يعايش الأحداث ويأخذ دورًا فيها، ولا بد من التناغم بين التصوير الرقمي ودعمه بإخراج فني، مع التنسيق بين مصمم العمل الفني وكاتب القصة، حتى تصل إلى الطفل بصيغة شيقة وشكل جميل، فإن كان الموروث الإنساني بحاجة إلى رسوم وقراءة إلكترونية تدعم مبدأه الأساسي، فعلى القدر نفسه يجب اعتبار حوسبة الخطاب الأدبي حجر الزاوية في عملية الإخراج الفني للصورة المرئية، والتي تشكل الحيز من التعبير عن الموضوع، بل وتتجاوزه في الأغلب الأعم، فأدب الطفل بمفهومه الموسّع هو أي وسيط قد يقدم للطفل معرفة أو يضيف له خبرة؛ لهذا فقد ينضوي تحت مصطلح أدب الطفل ما تقدمه الأجهزة الإلكترونية من متعة وفائدة[١١].

بما أن المنطق التكنولوجي يتجه نحو التصغير، فقد تمكن العلماء من صنع كتاب إلكتروني لا يزيد حجمه على حجم كتاب ورقي، وعلى الرغم من تطور الكتب الإلكترونية إلا أن استعمالها يبقى محصورًا في المنزل أو في بعض الأماكن الخاصة؛ لأن حجمها يشكل نوعًا من الإزعاج اثناء التنقل الدائم، والحل الأمثل للتخلص من هذه المشكلة هو الانتقال إلى الهواتف المحمولة حيث طورت شركات الهواتف العالمية.

إذا كانت الوثائق السابقة التي ذكرناها تقدم محتوى لا بأس به للطفل فإن اتصال تلك الوسائط بالشبكة العنكبوتية قد فتح آفاقًا رحبة ومساحات واسعة للطفل، تمكنه من الإنجاز عبر المواقع والمدونات التي تزخر بأدب الأطفال[١٢].

٤.قضايا معاصرة وتشكيل الوعي والفكر

في السنوات الأولى من حياة الطفل وخاصة ما قبل المدرسة من فترة الميلاد حتى الخامسة من العمر أثر حاسم ومهم في تكوين شخصية الطفل؛ لأن ما يتكون في هذه الفترة من عادات واتجاهات يصعب تغييره أو تعديله، ومن هنا تبدو خطورة الدور الذي تقوم به الأسرة في مجال تكوين شخصيات الأطفال تكوينًا يبقى أثره ملازمًا له في مختلف مراحل حياتهم؛ لذلك فالأسرة لها دور حيوي في تشكيل شخصية الطفل، وهي قد تقوم بهذا الدور بصورة غير سليمة وبطريقة عفوية تخضع للظروف، مثل ثقافة الأسرة ونوع السكن والمستوى المعيشي للأسرة، وتسمى هذه المرحلة مرحلة ما قبل المدرسة (من سن ٢-٥) تسمى مرحلة الاستعداد، ويبرز فيها دور الأمهات والآباء؛ لذلك يجب الأخذ في تثقيفهم فيما يتعلق بتنشئة أطفالهم، وعلى الأسرة في هذه المرحلة بالذات أن تراعي الأمور التالية: النمو الجسمي للطفل، وخاصة البصر والسمع والنطق، والنمو العقلي، والنمو الاجتماعي، والخبرات المكتسبة[١٣].

إن تقدم الطفل على سلّم الإبداع الأدبي يبدأ بتقليد ومحاكاة الكبار، وكلما بكَّر في دخول حقل الكتابة الأدبية تمكن باكرًا من التحمل لصوته الخاص. لكنه في الحالين يظل مبدعًا، يقدم فنًا له خصوصيته، فالملاحظ أن أي مبدع يبدأ عادة بالإعجاب بأحد الأدباء الكبار ويقلده في لغته وفي الموضوعات التي يهتم بها، ويظل يقلده حتى يكتسب أدواته الفنية الخاصة التي لا تأتي فجأة، لكنها نتاج عوامل بيئية واجتماعية تستطيع أن تنميه عبر(التمكين الأدبي)، فإذا كان التمكين الاجتماعي هو توفير لموارد القوة الاجتماعية التي تعين المرء على تجاوز مشكلات الواقع الاجتماعي، فكذلك يمكن للمبدع الصغير أن يُمكّن أدبيًا[١٤]؛ ليستطيع أن يحقق لذاته وجودًا مؤثرًا في الحقل الأدبي، وفي وعي أفراد جماعته وأبناء مجتمعه، وعادة ما يكون اختيار المبدع الكبير مرتبطًا باحتمالات قادرة على صياغة صورة متوقعة لحركة الإبداع والثقافة في المستقبل[١٥].

كاتب الأطفال الذي يجد نجاحًا وانتشارًا وقبولًا لدى كافة شرائح الأطفال، هو شخص لا يزال يحافظ على فطرية طفولته، ويميل إلى عالم الطفولة أكثر من ميله إلى عالم الكبار، ويعقد آمال على عالم الطفولة أكثر مما يعقدها على عالم الكبار، وإذا أردت أن أقدمه من وجهة أخرى، فأقول: وبالنسبة للتاريخ الأدبي لذاك الأديب الذي تفوح رائحة الرومانسية من أدبه، حتى لو كتب عن الحروب، إنه شخص رومانسي في تصرفاته ومواقفه. ذلك أن الطفل يشعر في عمقه أنه بحاجة إلى شخص كبير يستوعب تصرفه، ويستوعب جماليات مرحلته العمرية دون أن يخدشها أو يحط من مقدارها بالنسبة لوجهة نظر الطفل، ووفق تصوره وتخيله للأشياء، وهو على مدارج تلك المرحلة التكوينية التي يرى فيها كل شيء جميلًا وبالغ العذوبة، وطوع أمره؛ ولذلك تراه يستاء وينفر بقوة عندما لا تلبى رغباته أو طلباته التي يفهمها من وجهه نظره بأنها أوامر يصدرها إلى أقرب شخص كبير إليه، وعليها إن تلقى التنفيذ الفوري والمباشر، وهو جاد كل الجدة في هذه المشاعر؛ لأنه ربما يبكي حتى الإغماء إذا اصطدم بممانعة، أو بعدم استيعاب، أجل إنه قد ينشج حتى الموت بسبب قطعة

حلوى، وقد يستغرق في الضحك التلقائي حتى الإغماء بسبب مداعبته للعبة. يدرك الطفل في حضرة رجل استثنائي كهذا أنه لا يتحدث إلى طفل مثله، في الوقت الذي يدرك فيه أنه لا يتحدث أيضًا إلى رجل كبير لا يستوعبه، ينتابه إحساس في حضرة رجل مجيد كهذا أنه يتحدث إلى طفل يكبره بالحجم فقط، إنه يرى طفولة جلية فيه ويخاطب طفولته، فيرى الاستجابة من تلك الطفولة؛ ولذلك تراه يمازحه، ويتصرف معه كما لو أنه يتصرف مع طفل تبلغ بينهما درجة التفاهم حد أن الطفل يصغي إليه بجدية، ويرى أنه يمكن أن يدافع عنه في عالم الكبار، هنا ندرك بأننا إزاء شخص يمكن له بالفعل أن يقدم شيئا مجديًا للطفل، سواء من خلال العلاقة المباشرة بينهما، أو من خلال الأدب. إننا لا نتردد عند ذاك من عقد آمال كبرى على هذا الشخص، ونضع أطفالنا أمانة بين يديه، وبين ظهراني أدبه(١٧).

٥. أوجه الاختلاف والتباين في المحتوى

قد أبدعت المجتمعات الشرقية عمومًا فيضًا من القصص، حيث أراد الإنسان ببعض تلك القصص مواجهة ما ينتابه من مخاوف، عن طريق تمجيد اعمال البطولة وإبراز دور(الأرواح الخيرة) في الانتصار على قوى الشر، ولا يمكن إغفال الدور الثقافي للقصة في الطفل، فمع أنها نوع أدبي، فهي تحمل مضمونًا ثقافيًا؛ لذا فإن الباحثين في الثقافة والشخصية يعتبرون تحليل القصص الشائعة عملية تقود إلى تحديد بعض سمات روح المجتمع الذي تشيع فيه، وتحليل قصص الأطفال بالذات يقود إلى الوقوف على سمات عديدة، من بينها تحديد ما يريده الكبار لأطفالهم، ويلاحظ أن الأطفال شديدو التعلق بالقصص، وهم يستمعون إليها أو يقرأونها بشغف ويحلقون في أجوائها، ويتجاوبون مع أبطالها، ويتشبعون بما فيها من أخيلة، ويتخطون من خلالها أجواءهم الاعتيادية، ويندمجون بأحداثها، ويتعايشون مع أفكارها، خصوصًا وأنها تقودهم بلطف ورقة وسحر إلى الاتجاه التي تحمله، إضافة إلى أنها توفر لهم فرصًا للترفيه في نشاط ترويحي، وتشبع ميولهم إلى اللعب؛ لذا فهي ترضي مختلف المشاعر والأمزجة والمدارك والأخيلة، باعتبارها عملية مسرحة للحياة والأفكار والقيم.

والقصص بتخطيها أبعاد الزمان تنقل الأطفال عبر الدهور المختلفة، كما تتجاوز بهم الحاضر إلى المستقبل، وبتخطيها أبعاد المكان تنقلهم إلى مختلف الأمكنة، وبتجاوزها الواقع تجعل الأطفال أمام حوادث ووقائع وشخصيات وأجواء خارج نطاق الخبرة الشخصية للأطفال، وتهيئ لهم الطوفان على أجنحة الخيال في عوالم مختلفة. والقصص بفضل مسرحيتها للحياة وما فيها من معاني أصبحت وعاء تجسيد للثقافة ما دامت الثقافة أسلوبًا للحياة؛ إذ أنها تجعل للحياة أبعادًا جديدة، فتبدو معقدة، أو مشوقة، أو غريبة، أو قريبة إلى حياة الطفل أو بيئته أو ذات مساس بقضية يمكن أن يتركز اهتمام الطفل حولها، أو يجد نفسه وكأنه إزاء عقدة لا بد له من أن ينتهي بها إلى حل(١٨).

(الكيلاني) من الكتاب الذين أجادوا الكتابة للأطفال، والاختيار الصحيح من قصص التراث الذي يمكن أن يستوعبه الطفل، مع تحوير جيد للعمل القصصي حتى يتسق بمكتسبات الطفولة دون إسفاف أو تطويل[١٩].

والملاحظ ان أصحاب الآراء الاعتراضية على بعض جوانب المضمون الخيالي لقصص التراث، جميعهم يدركون مدى أهميته وفاعليته في تكوين معالم شخصية الطفل؛ وهكذا تترسخ في الأذهان مكانة الخيال التراثي العربي الذي ساهم و لا يزال بصورة كبيرة في تشكيل عقول الأطفال ووجدانهم، ليس في العالم العربي فحسب، ولكن في العالم أجمع، بعد أن شيدوا أدبهم الطفولي على ما اقتبسوه من محتواه، واستعاروا من رموز شخصياته، فكانت بمثابة أيقونات لعالم طفولي ساحر وجذاب ما زال محببًا إلى الأطفال في كل مكان، يلهب عقولهم ويثير أحاسيسهم، كما ألهب عقول الكثير من الشعراء والأدباء والعلماء في طفولتهم، فهو زاد خصب ثري لا يخلو من العظات التربوية والقيم الأخلاقية، والمتع النفسية والوجدانية.

و(الكيلاني) من الرواد الذين استشعروا حجم الخطأ والجرم الذي نرتكبه في حق أطفالنا بحرمانهم من هذا التراث القصصي بمحتواه الذي يسهم في تحقيق متطلبات النمو النفسي والتربوي والاجتماعي للطفل، فعن طريقه يتعلم التفاعل الاجتماعي وتكوين الصداقات مع الكبار، وتكوين الضمير بالتمييز بين الخير والشر والصواب والخطأ، ومعايير الأخلاق والقيم المرغوبة، وتكوين الاتجاهات نحو الأشخاص والجماعات، وتكوين المفاهيم والمدركات، فالمضامين الخيالية لقصص التراث آلية يجب أن يحسن الكاتب توظيفها في أدب الأطفال وتربية النشء، في إطار الاختيار الواعي الصائب للحكايات التي تحوي خيالًا بناءً، ووفق ضوابط أدبية وتربوية حتى يتسنى له التصدي للكثير من أنواع الخيال الهدام والمطروح على الساحة الأدبية والثقافية، ويتبنى معايير تخالف عاداتنا وأدياننا وتقاليدنا، والذي يبدو من خلال خلق شخوص في عالم الطفل أقل ما يمكن أن توصف به بأنها غير بريئة؛ ذلك أنها استخدمت عبر سنوات كوسائل وأدوات لصناعة عقولًا ذات نمط معين، تسيرها أيدولوجيات خاصة حريصة على قسمة العالم إلى خير مطلق وشر مطلق، وهي الأيدولوجيات التي نشأت في ظل مجتمعات تروج لمؤسسات يقودها من يعتبر نفسه مثل الرجل الأخضر والسوبر مان، يحدد ما هو الخير وما هو الشر، ويحكم بنفسه على الآخرين بمعياره الشخصي عبر حوادث جنونية تنتهي بانتصار البطل ناصر المظلومين وناشر العدالة، وللتصدي لهذه الظواهر لا بد من تصحيح المفاهيم الخاطئة المكتسبة من التراث العربي، وتنقيته من كل ما لا يساير العصر، وتقديمه لأطفالنا كي نحصد ثماره الإيجابية في التربية والأدب والأخلاق[٢٠].

تنسجم القصة مع نفسية الطفل الخيالية إذ يعتبر الخيال جزءًا مهمًا من حياته التي تقوم على أساس من الايهام من سنواته الأولى، وعندما يصل إلى مرحلة الطفولة الوسطى

يتحول إلى التخيل الإبداعي، أو ما يطلق عليه بالتخيل التركيبي؛ مما يمكن معه توجيه قدرة الطفل الخيالية في ميدان القصص العلمية لتحمل إليه معاني وصور جديدة من الحياة والحوادث لا يجدها في بيئته، فهي إذا مصدر من مصادر إشباع رغبته في المعرفة، ودافع لغريزته في حب الاطلاع للكشف عن أشياء لم يكن يعرفها.

إن لكل طفل في مرحلة من مراحل نموه المختلفة ميلًا إلى نوع خاص من القصص يبدأ في الظهور عندما يتم عامين من عمره، فيستأنس بالقصص القصيرة البسيطة، مكونًا صورًا حسية في ذهنه عندما يصغي لسماعها، ويعيد بناء الصور الذهنية كلما تقدم في العمر.

هناك رأي يتفق عليه الكثيرون فحواه أن الصورة تناسب الطفل أكثر من الكلام؛ إذ تمتاز بقوة تأثيرها وطول فترة هذا التأثير، وتزداد هذه القوة وتطول مدتها عنده، فهو يشغف بالقصص المرسومة والمصورة عن الحيوانات وحياة الشعوب، بالإضافة إلى ذلك فالصورة تساعد خيال الطفل على الانطلاق دون قيود أو حدود في أركان العالم، إلى جانب ذلك كله أنها تُرضي جزءًا أكبر من القلق وفقدان الصبر؛ لما تحويه خلفيتها من مناظر متعددة، غير أن بعض المفكرين يرى أن ازدياد نشر الرسوم والصور في كتب الأطفال يقضي على جزء كبير من النص، إلى الحد الذي تختفي فيه الكلمات أحيانًا، وهذا الاتجاه يقضي على تذوق الكتابة الجادة ويكون بالنهاية قضاء على التعليم، أو بعبارة أخرى هو ضد التعليم، ولكن يجب أن نوفق بين نسبة الصور والكلمات، حتى يمكن الحفاظ على أهمية كلٍّ من الصورة والنص(٢١).

الخاتمة

لقد خاضت الدولة المصرية معتركات عديدة في مختلف المجالات، وبالرغم من ذلك حققت إنجازات على مدار سنوات قليلة مرت، حتى تجسدت الجمهورية الجديدة حقيقة، بل واقع نعيشه جميعًا ويشهده العالم من حولنا، فكان مصير هذا البناء مصيرًا حضاريًا مقدرًا لنا، يسطره التاريخ وتشهده الأمم، ووسط كل هذه الإنجازات تبنت الدولة إعداد جيل من الموهوبين الصغار لتشكيلهم تشكيلًا وجدانيًا وإبداعيًا، فنظمت لهم المسابقات والجوائز التقديرية والتحفيزية حتى تكون تلك الإسهامات بمثابة الدعم الحقيقي لمستقبل هؤلاء الأجيال.

ويحيط أدب الطفل الاهتمام بالمبدع الصغير، ويقع على عاتقه أيضًا سلامة وحماية الطفل سلوكيًا وتربويًا، وبناء الفرد وتشكيل الفهم والوعي، وتنظيم أفكاره وترتيبها ترتيبًا واعيًا يتناسب مع البناء الرشيد والقيم والأخلاقيات الدينية القويمة. وإن كنّا بصدد الحديث عن أدب الطفل والجمهورية الجديدة، وما نلمسه من تطوير تشهده تلك الحقبة التاريخية المهمة من تاريخ مصر الحديث، وما تم تحقيقه باتجاه التغيير والتطوير في فترة زمنية وجيزة مما يوفر لأجيال قادمة حياة أفضل في ظل جمهورية جديدة تسعى جاهدة إلى التقدم والتنمية والبناء، والتي تضرب بجذورها في أعماق المجتمع المصري، وتشكيل الوعي والفكر وتحقيق التوازن المطلوب بين القضايا المطروحة المختلفة في سياق استراتيجيات وآليات التطوير.

وما زال الدور التي تقوم به الأسرة دورًا مهمًا في حياة الأفراد وبناء المجتمعات؛ لذلك نضعها في دائرة الاهتمام، فهي بحاجة مستمرة إلى المزيد مما يقدم من توعية وإرشاد في إطار ما تنظمه الدولة من برامج مختلفة وحملات التوعية والتثقيف للنهوض بالأسرة، ويسهم دعم الأسرة للطفل منذ النشأة الأولى في تشكيل وبناء الشخصية وتكوينها، فالإيجابيات التي تحققها الندوات التثقيفية والإرشادية في ذلك المجال ستكون لها الأثر أيضًا في تشكيل الطفل وبنائه صحيًا، وحيث إن المشروعات القومية التي تقيمها الدولة في سياق البناء المجتمعي لم تكن تتعلق بالتطوير فحسب، إنما ترعاها مظلة تتسع للجميع، ألا وهي الجمهورية الجديدة بمفهومها الواسع المتسع للبناء والتنمية، في ظل منهجية واستراتيجية قائمة على أسس علمية سليمة معنية بالمستقبل الجديد.

هوامش البحث:

١. علي الحديدي: في أدب الأطفال، مكتبة الأنجلو المصرية، ص ٣١، ٣٢، ٤٢.

٢. نفس المرجع ص ٤٣-٦٤.

٣. محمود أحمد عبد الله: إبداع الأطفال الأدبي قراءة في ضوء علم اجتماع النص، ص ٥،٦.

٤. عبد الفتاح أبو معال: أدب الأطفال، وأساليب تربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم، ص ١٢٣.

٥. عبد الفتاح أبو معال: أدب الأطفال، وأساليب تربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم، ص ١٢٣.

٦. نبيل علي: العرب وعصر المعلومات، ص ١٣، ١٥ - ١٦.

٧. د. إيمان يونس: الأدب الرقمي العربي: الواقع، والتحديات، والآفاق، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، ٢/ ٢٠.

٨. سحر حسنين: التربية الإبداعية للطفل ومواكبة تحديات العصر، المجلة العربية لإعلام وثقافة الطفل، ص ٣٠٥.

٩. سحر حسنين: التربية الإبداعية للطفل ومواكبة تحديات العصر، مجلة العربية لإعلام وثقافة الطفل، ص ٣٠٥.

١٠. علي شمسة وعمر زلاسي: أدب الطفل ومستقبل الميديولوجيا، ص ٤١ -٤٣.

١١. نفس المرجع، ص ٤٩ – ٥٠.

١٢. علي شمسة وعمر زلاسي: أدب الطفل ومستقبل الميديولوجيا، ص ٥١.

١٣. زهراء فداء الشيخ: طرق ووسائل تنمية الإبداع الأدبي عند الأطفال، الحداثة، ص ٢٩٣.

١٤. محمود أحمد عبد الله: إبداع الأطفال الأدبي قراءة في ضوء علم اجتماع النص، ص١٢.

١٥. محمود أحمد عبد الله: إبداع الأطفال الأدبي قراءة في ضوء علم اجتماع النص، ص١٢.

١٦. عبد الباقي يوسف: عالم الكتابة القصصية للطفل، ص ١٢، ١٤ – ١٥.

١٧. هادي نعمان الهيتي: ثقافة الأطفال، ص ١٧٢، ١٧٣.

١٨.ثرية عبد الرحيم: الخيال في قصص كامل الكيلاني للأطفال، مجلة الدراية، ص ٤٠٢.

١٩.ثرية عبد الرحيم: الخيال في قصص كامل الكيلاني للأطفال، مجلة الدراية، ص ٤٠٤، ٤٠٥.

٢٠.نفس المرجع، ص ٤٠٤ – ٤٠٥.

٢١.عبد الفتاح أبو معال: أدب الأطفال، وأساليب تربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم، ص ١٢٣، ١٢٤-١٢٥.

المراجع:

- إيمان يونس (رئيس قسم اللغة العربية وآدابها في المعهد الأكاديمي العربي للتربية): الأدب الرقمي: الواقع والتحديات والآفاق، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية العدد ٥٨.
- ثرية عبد الرحيم السيد عبده: الخيال في قصص كامل الكيلاني للأطفال: مجموعة قصص من ألف ليلة نموذجًا، مجلة الدراية، العدد السادس عشر، ٢٠١٦.
- زهراء فداء الشيخ: طرق ووسائل تنمية الإبداع الأدبي عند الأطفال، الحداثة، عدد ١٨٩، ١٩٠، شتاء ٢٠١٨.
- سحر حسين عبده حسانين: التربية الإبداعية للطفل ومواكبة تحديات العصر الرقمي: دراسة تحليلية، المجلة العربية لإعلام وثقافة الطفل، المجلد الرابع، العدد (١٧)، أغسطس ٢٠٢١م.
- عبد الباقي يوسف: عالم الكتابة القصصية للطفل، سلسلة كتاب العربية، الرياض: وزارة الثقافة والاعلام في المملكة العربية السعودية، ٢٠١٠م.
- عبد الفتاح أبو معال: أدب الأطفال، وأساليب تربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم. دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، إصدار أول ٢٠٠٥م.
- علي الحديدي: في أدب الأطفال، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤. ١٩٨٨م.
- علي شمسة وعمر زلاسي: أدب الطفل ومستقبل الميديولوجيا: مذكرة تخرج ضمن متطلبات شهادة الماستر في اللغة الأدب العربي، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. جامعة الشهيد حمه الخضر - الوادي - الموسم الجامعي (٢٠١٨ -٢٠١٩).

- محمود أحمد عبد الله: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، المؤتمر السنوي الخامس عشر، قضايا الطفولة ومستقبل مصر، إبداع الأطفال الأدبي: قراءة في ضوء علم اجتماع النص.

- نبيل علي: العرب وعصر المعلومات، الكويت: عالم المعرفة، إبريل ١٩٩٤م.

- هادي نعمان الهيتي: ثقافة الأطفال، الكويت: عالم المعرفة، العدد ١٢٣، مارس ١٩٨٨م.